المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الرابع والستين

١ فبراير (شباط) سنة ١٩٢٤ — الموافق ٢٦ جماد الثاني سنة ١٣٤٢

عائشة عصمت تيمور

(٨)

شعرها

قالت التيمورية شعرها بالعربية لغة وطنها الجديد. وبالتركية لغة وطنها الاول، وهي لغة لا يزال التخاطب بها في بعض الاسر ذات الاصل التركي. وقالته بالفارسية التي هي لغة من ادباء العرب والترك لغة «مدرسية»، شأنها عندهم شأن اليونانية واللاتينية عند الغربيين. والسبب في ذلك علاقة الفرس بهذين الشعبين الشرقيين من حيث السياسة والتاريخ. أما من حيث الرقي الفلسفي والعلمي والفني فان اليونان والرومان قد سبقوا العرب الى الاقتباس عن تلك الحضارة القديمة والانتفاع بما توحي وما تدّخر

ليس بوسعي درس شعرها غير العربي لجهلي اللغتين اللتين كُتب بهما. على اني اذكر هنا شبه شهادة سمعتُها عرَضاً من تيمور باشا. وهي قول المغفور لهُ السلطان حسين لسعادته انهُ «يفكر فيه كلما رأى ابنتهُ قدرية تقرأ في ديوان السيدة عائشة». وهناك شهادة مسجّلة في آخر الديوان المذكور «كشوفة» وهي رسالة من «إيران دولت عليه سي مصر قاهره قونسولي سعادتلو دوكتور ميرزا محمد مهدي بك افندي حضرتلري»

ولكن هل تعني الشهادة والانكار دواماً كلّ ما يُرصف فيهما؟ نقرأ أحياناً وصف بعض نتاج الاقلام عندنا فنحسبُ اننا مقبلون على مثل ما أبرز أوربيدس

ودانتي وشكسبير . فنحملق بالعيون والقلوب فاذا بنا نطالع شيئاً حسناً قد يجوز « تشجيع » صاحبه . أو شيئاً غير حسن يتحتم أن يُحرم كاتبهُ من الفاكهة والحلوى طيلة اسبوع على الاقل

لتكونَ إذاً من انصار اللاشهادة ما بقينا في هذه القوضى الإطنابية . غير اننا لا يسعنا إلاَّ الاعجاب بقلم يعالج الشعر والآداب في لغاتٍ ثلاث

لا يذهلنا الآن ان يتكلم الشخص الواحد بثلاث لغات أو أربع ، وان يتكلم باعة الدكاكين وغلمان البواخر والمقاهي والفنادق بما يربو عليها ، لعلمنا انهم لا يستعملون إلاَّ الكلمات المألوفة التي تفي بالاغراض السطحية . لا يذهلنا ذلك لتتابع الاحتكاك والاختلاط بين الامم . بيد انهُ ندر حتى بين مشاهير الشعوب من الافذاذ من عرف اكثر من لغتين معرفة يصح القول عندها ان «كلَّ لسانٍ بالحقيقة إنسان »

عبقرية اللغات عبقرية مستقلة . هي حذق عميق رشيق ينفذ في ارواح الشعوب ويأوي اليها ، ثم يتحوَّل اتساعاً وعلوّاً فيشملها . كأن الفرد الموهوب يتقمَّص في كل شعب يدرس لغتهِ فيتوحَّد واياهُ حيًّا بحياتهِ ، ناطقاً بلهجتهِ ، مدركاً منها الخصائص والمستعصيات . ويفسِّر الروحانيون هذه الموهبة بما يفسرون به المواهب الاخرى والعبقريات . اعني نظرية الاعمار المتكرِّرة بالتناسخ والتجسُّد بين شعوب مختلفة

وشرح ذلك ان الذي يتناول علماً او فنًّا او لغةً بسرعةٍ ، لا « يدرس » ما يدرسهُ مرة اولى . بل يراجع شيئاً عرفهُ سابقاً وغاب عن ذاكرتهِ . بينما غيره من الاذكياء الذين قد يكونون اسبق الى معالجة تلك المواهب وصقلها ، واكبر منهُ سنًّا ، واوفر تجريباً دنيويًّا ، يبدون عند المقابلة به أطفالاً في الآراء والاساليب . وانك لترى في نظراتهِ وملامحهِ وقرار صوتهِ علامات غريبة جذَّابة توحي اليك انهُ عاش قديماً قديماً ، حتى وان كان خلقهُ مطبوعاً على الصبوة والبساطة والوداعة . وتوحي اليك ان روحهُ استوعبت قسطاً وافراً من الوقائع والاسرار وفرائد الجمال

لنظرية كثيرها لا يأس من الالمام بها . ولكل احد ان يفسِّر على ما يرضيهِ موهبة اللغات الثلاث التي نالتها امرأة مخدَّرة سبقت جيلنا بجيلين

* * *

قبل الاندفاع إلى الشعر العربيّ والكلام عن شعر عائشة أعلم ان قولي لن يرضي انصار القديم ولا انصار الجديد . وقد يتفق الفريقان للحكم بأني انا الاخرى خليقة

بالانقطاع عن الفاكهة والحلوى اسبوعاً او أسابيع . شكراً لغيرتهم على خلاص نفسي . ولما كنتُ من الين الطبائع عريكة كنتُ مستعدة لتغيير فكري شرط ان يقتنعني السادة المثقفون . وبعدُ فلنبدأ متوكلين على الله

***

ليس اعسر من تعريف الملكة الشعرية وتحديد الشاعر . اصحيحٌ أن الشعر كلمةٌ رقة وعذوبة واحساس وموسيقى دون تفكير ومعرفة وبحث وقوة ؟ ام هو مزيجٌ من كل ما تقتنيه الحياة وتولده من المدركات والمحسوسات ، سُبك في قوالب متعددة وخفاً لأنظمة بديهيّة تتملّص كالشعر نفسه من حظيرة التفهم والادراك ؟

الشعر أحد اساليب التعبير عن خواطر وعواطف وحاجات ما فتئت الانسانية تستوحيها وتتفعل بها . قليلة هي تلك المعاني الاساسية . بيد ان شعبها ومناحيها تذهب كل مذهب ، وتضرب من اعماق البحار الى اقطاب الارض ، الى فسيح السموات ، الى رجات الزمن في الازل منها والسرمد

ولقد بدأت الهمهمة الشعرية عند كل قوم بوسيلةٍ من الوسائل . عن طريق العبادة ، او تعظيم الأبطال ، او شكوى الآلام وبث الغرام . ويظهر ان الداعي اليها عند العرب هو سير الأظعان في البوادي وانتقال القوافل في وحدة القفار فاهتدوا الى الحداء مستحثين الابل في مستمر الرمضاء . تخفّت الابل سيراً وانتعش منها النشاط ، وارتاح الحادون الى النشيد يجدون فيه ملهاةً عن المشقة وتسلية للتعب والضجر . وتطرقوا بعدئذٍ الى تنويع الموضوعات فتغنوا بمزايا المحبوب وشبّهوهُ بما يعجبهم من خصائص الحيوان في الفلوات التي يجتازون . ووصفوا وحشة المضارب المتنقّلة ، والآثار العافية ، ومرارة الوداع والفراق . وعدّدوا مفاخر القبيل والنسب ولذائذ العشق والحرب والغزو والتطعين والاخضاع

وكان من ثروة اللغة في الالفاظ والاستعارات (لكثرة القبائل المتكلمة العربية) مساعد على التزام البحر والقافية في تنظيم الحداء . فأوجد هذا في الشعر العربي طلاوة وغنى في الوتيرة الواحدة . وجزالة ونكهة بدوية ودقّة لفظية تفرّد بها دون غيره . ومنهُ كذلك جميع العيوب التي يسبحُ فيها شعرنا الاّ القليل كما في بحر طام

يصمّم اكثر شعراء العرب على تقليد هذا الشاعر أو ذاك من القدماء بدلاً من

ان يجروا وراء سليقتهم الفردية ، فينجم لنا « طبعات » جديدة مشوهة من الشاعر المقلَّد . ويخاطبوننا بلغة عصور خلتْ ونحن اليوم في عصر الحيرة والتردُّد والثورة الكبرى. فمن الاعجاب بالجزالة البدوية جاء حب النسخ والتقليد . وعنهُ نجم الفقر في الخيال العربي ، والتقيُّد باللفظ دون المعنى ، وجمع الفكرة في كلّ بيت بمفرده ، والخلل في اتساق الخواطر ، والقصور في تنظيم أجزاء الخطاب . حتى انك كثيراً ما ترى وجوب جعل آخر القصيدة أوّلها ومنتصفها آخرها

وعن التقليد نتج حصر الشعر في أبواب المدح والهجو والرثاء والحماسة والفخر والنسيب ، والحكمة أحياناً . وعنهُ ترتيب الدواوين على الحروف الابجدية لأن التواني وشيوع الموضوع يفقدان كلّ قصيدة عنوانها كما يفقدان كلّ ديوان فهرسهُ . وعنهُ خصوصاً نجم إهمال التاريخ في قصائد الشاعر ومؤلفات الكاتب . كأن نموّ الفكر وعماشاة التطوُّر دوراً بعد دور شيء لا يُلتفت اليهِ . مع أن معرفة التاريخ ليست دون معرفة الحوادث والمؤثرات والسنّ والبيئة أهميةً في تفهُّم فصل أو كتاب

جرى العربي دواماً على الفطرة يتناوبهُ الكسل في الرخاء والوثب في الشجاعة. ففقدت اكثر شؤونهِ ميزة التنسيق التي يرينا منها الغربيُّ مثلاً جميلة تنبّهنا إلى ان لا كمال إلاّ باجتماع المادّة والتنظيم . وإلى انهُ كما قد تذهب المادة الثمينة هدراً في التشويش وسوء الوضع كذلك قد يوهم التنسيق بوجود ما ليس بالموجود ويُظهرُ اليسر كثيراً

***

جميع هذه العيوب في ديوان التيمورية حيث لا تنظيم ولا تنسيق ، حتى ولا تبويب على الابجدية ، ولا أثر للتاريخ في القصائد — إلاّ القصائد التاريخية في السطر الاخير منها ! ولئن جرت على عادة العرب في التعبير ، أي الافصاح عن عواطفها غالباً باستعارات من سبقها ، فالامر الذي يسبيني في شعرها ان شخصيتها تبدو من خلال المحفوظات كما يبدو الجسد في لوحة تصويرية من خلال الانسجة الشفافة . وقد تفلّتت من عيب « المفاخرة » بذويها وأهلها . ولا هي تبدأ بالتغزّل لتنتهي بالاطناب . وليس للاطلال والمضارب ذكر في قصائدها . وأما من حيث الصدق فاظنها في مقدمة الصادقين من شعرائنا . ومعظم استسلامها للغلوّ في جزء خارج

عنها وهو شعر المجاملة . بينما هي في شعرها الذي يرسم نفسها ساذجة مخلصة عذبة تروي حديثها باسلوب ليس هو بالهندسيّ الذي لا يقدر أنصارُ القديم سواهُ . إنما هو كما يقول الفرنجة روانتيّ (romantique) يجري عليهِ بعض شعراء العصر

وهذا الشعر الوجداني بطبيعتهِ ، الفنائيُّ بلهجتهِ ، ينقسم الى خمسة أقسام كبرى . وهي :

١ً — شعر المجاملة

٢ً — الشعر العائليّ

٣ً — الشعر الغزليّ

٤ً — الشعر الاخلاقيّ

٥ً — الشعر الدينيّ او الابتهاليّ

ففي الاقسام الثلاثة الاولى تلقّت التأثر من الناس فأعادتهُ اليهم نشيداً . وفي القسمين الأخيرين تلقّت التأثر من مختلف الجهات فخاطبت نفسها وناجت ربّها الكريم مبتهلةً الى العزة الالهية

١ً شعر المجاملة

لقد حنّت المجاملة عندنا مكان الصدق في امور جمّة لخلوّ آدابنا العربية وعاداتنا الاجتماعية من النقد المتصف الحصيف . فان نحن استنكفنا هذا التطفّل من المجاملة ، وتأفّفنا لإدمان معالجيها والراضين بها ، فهذا لا يحول دون التقرير بأنها في حالتها المعتدلة علامةٌ للثقافة النفسيّة . المرء يعيش في بيئةٍ فعليهِ ان يقلع عمّا يزعج بني جلدتهِ لغير ما سبب . لذلك هو يضبط خوالج نفسهِ ويحاول الشعور معهم والتلطف اليهم لا خبثاً ولا كذباً بل تمرّناً على الغيريّة بتهذيب ذاتهِ في فنّ الارضاء « والدوزنة » ، واقتبال التضحية الصغيرة التي تسهل بالمران وتتحوّل شيئاً فشيئاً إلى سرور وقتيّ مأنوس

استبدلْ كلمة « نرجو تشريفكم » في دعوة بكلمة « احضر عندنا يوم كذا ساعة كذا » . تعلم ان الصراحة ليست هي الخشونة ، وتقدّر المجاملة المعتدلة وآداب اللياقة . وتعلم لماذا هذه الملح في حالة الدقة والإحكام تاقي في اجتماعات الانس رونقاً سطحيًّا مستحسناً

أما عائشة فلديها الوقت الكافي لتتفنن في تنميق الدعوة على هذا النسق :

لقد منّ الاله لنا بسعدٍ وأشرقت الليالي بالاماني
وقام الفوز في الدنيا خطيباً ودقّ الحظّ أوتار المثاني
وانتم للمنى عين وروح ومشكاة السرور مع التهاني
لكم صفو المسرة في انتظار فشنّوا بالتعطّف والتداني
أجيبوا دعوة الداعي فأنتم فرائد والمجالس كالجمان

وفي الوليمة يقرأ المدعوون هذه الجاملة الاخرى على لوحة كبيرة :

قد منّ فضلاً بالصفا الفتّاحُ وضياء توفيق الهنا مصباحُ
والسعد أقبل والعناية ساعدتْ دامت لنا بسرورنا الافراحُ

وتطرز اسم أحد رجال الانشاء :

علام الدرّ يا غوّاص غالي فبعضٌ ما يُسام ولا تبالي
لقد جاد الاله لنا ببحرٍ يجود بدرّهِ قبل السؤالِ

وتحيّي دولتلو حسين باشا (أليس هو السلطان حسين بعدئذٍ ؟) لقدومه من السفر فتقول :

لاحت شموس السعد بالاقطار وجليت عروس الانس للابصار
واستبشرت مصر المنى بقدومهِ حسن الخلائق غرّة الانوار

. . . . . .

لو للديار فمٌ لقالت مرحباً بشرى بنيل عزّي ومداري
قد أقبلت بالبشر دولتك التي هي تاج آمالي وعين فخاري

اكثر الجاملة في شعرها لامتداح الخديوين (عشر قصائد تقريباً) . هاك كلاماً حلواً رنّاناً في تهنئة الخديو بالعودة :

كلّلت تاج البدر قرباً بالشرف مذ حللّ في مصر ركابك والعطفْ
طربت بمقدمك المنى بلطفهِ مصر السعيدة والسرور بها هتفْ

. . . . . .

وازيّنت بكرُ الحبور وأصبحت محلوّةً بين الرفاهة والترف
وتجمّلت مصرٌ بما جاد الهنا ورخيم مطربها على عودٍ عكفْ

في منتهى اللطف هذان البيتان لاسيما الثاني . وفي الشطر الاخير نفحة شعرية منعشة . وهذا مثله .

وتراقصت مهج النفوس لبشرها كبلابل غرّدن في روض أنف
أضحى يقولُ بسعد بابك نيلهب أقبلْ على بحر الوفاء ولا تخف

***

أكل هذا محض رغبة في المجاملة والارضاء ؟ بل فيه بعض الصدق . ان للأعياد القومية والاحتفالات بهجة و« جوًّا » ينفث في الجماهير فكرة ويبثُّ فيهم توقداً . ويخلق في ذوي الشعور اليقظة مختلف العواطف . فكيف لا تتأثر المرأة المحجوبة اذ تمرُّ في مركبتها المسدولة الاستار بين معالم الزينة والالوية والانوار وصفوف الجنود وقرع الطبول ؟ كيف لا تهتمّ بالذات العلية التي تهتز البلاد لحركاتها ، وهي القريبة اليها بمنصب ابيها ، المدينة لها بعض الشيء بمرتبة اسرتها ، الملمّة ببعض أحوالها بالاختلاط بنسائها ؟ فكانت تهنىء خديوياً بالعودة تهنىء الخديوي التالي توفيق باشا بالتولية :

تيجانُ عن الصفا أضحت تكلّلها يدُ السرور بفوز دائم بهج
والسعد اشرق نوراً ، والسنا غنيت عن نور أقمارها والارض عن سرُج
تقلّد النيّر الدريُّ تولية ضياؤها لسوى الاصلاح لم يهج
. . . . . .
هذا الخديو الذي قرّت بموكبه عينُ الزمان وقالت للهدى ابتهج
يسوس بالعدل والانصاف أمّتهُ ويبذل الفضل والجدوى لكلّ رج
. . . . . .
والدهر رنّم بالبشرى يؤرخهُ يا مصرُ قد زانك التوفيقُ بالبلج
(سنة ١٢٩٦ ٣٤١ ١٠٤ ٧٨ ٦٢٧ ١٤٦)

واذ مرّ الخديوي بينها العسل تنظم هذه الابيات لتكتب على لوحات الزينة :

البشرُ أجرى بنها أنهر العسل والنصر أضحى بتوفيق السعود جلي
وافى الخديوي . . . . . .
ما ثمّ أرضٌ سقاها غيثُ مقدمهِ إلاّ وفازت بزاهي الانس والجذل
تهلّل الفطر بشراً من زيارتهِ وأيقن القوم حسن الفوز بالامل

وحين مولد وليّ عهده :

قرّت عيونٌ للسعادة بالصفا مذ بشرت بسميّ عم المصطفى
عباس أشرق بالمعالي نجمهُ من نيّر التوفيق سعداً أشرفا
رفصت بمنبتها الغصون بشارةً بقدوم من بوجوده دهري صفا
قالت ميامن بشره تهنّ الورى فالامن والتوفيق فوزاً أخلفا

الاّ ان هـذه اللهجة تصطبغ بالجد في قصيدة الترحيب بالخديوي بعد الثورة العرابية :

الله اكبر يوم آب عزيزنا عيدٌ كبيرٌ زانهُ التشريقُ
وافى الخديوي الفخيم المرتضى ربّ الفخار عزيزنا توفيقُ
رفعت لهُ الاعلام يوم قدومهِ وبدا لها في الخافقين خفوقُ
وسرت بأرجاء البلاد مسرّةٌ من عطرها روح النسيم عبيقُ
عزفت لهُ الافراح الحان الهنا وبدا يشيرُ لحسنها التصفيقُ

ومن ثم تمضي في انكار تلك الثورة التي لم يرض عنها الخديوي :

ولكَ السيادة ليس ينكر أمرها الاّ عديم العقل او زنديقُ
قدحت بأكباد العدا نارُ الغضا واشتدّ ما بين الضلوع حريقُ
كفروا بأنعم فيض جدوائك التي تربو على قطر الندا وتفوق

. . . . . .

ظلموا نفوسهم بخدعة مكرهم والمكر يصمي أهلهُ ويحيقُ
فرّقت شمل جموعهم فكأنهم في الابتعاد وفي الوبال سحيقُ

هذه مصارحة خطيرة وهي الغمزة السياسية الوحيدة في كتابات التيمورية اذ استثنينا مشايعتها للعرش في قصائد الثناء . مشايعةً فيها تتلخّص عاطفتها « الوطنية » وبها تحبُّ جوّ « مصر السعيدة » ونيلها الفياض ، والحان افراحها . تريد لمصر الخير والصلاح والهناء بواسطة الخديوي الذي ترى فيهِ أقدر عامل على ذلك ، ليس لانهُ مصلحٌ أو خيّر بطبيعتهِ ، بل لانهُ صاحب الاريكة . فكما انهُ فوق رعاياهُ في المكانة فهو كذلك لهم في الصلاح والعدل المثل الاعلى .

والتيمورية في هذه «المحافظة» السياسية متفقة وطبيعتها . لاننا رأينا في ماضي وسنرى في الباقي من آثارها انها غير ثائرة

(يتبع)